

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

نقاء القرآن الكريم من الظلام الأعجمي

للككتور حسن ضياء الدين عتر

نزل الله القرآن العظيم على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم كتاب هداية وإعجاز ومناورة هدى وإيمان ، ليخرج به الناس من الظلمات الى النور . لقد استعلى البيان القرآني المعجز الباهر على جميع الماهب الأدبية العريقة ، فحيرت روعته أبواب أساطين البلاغة والفصاحة . وتسالت الى شغاف القلوب ونشرت أنوار الهداية في أرجاء الجزيرة العربية جميعاً . وسطع القرآن على شعوب العالم فأنقذ الانسانية من المظالم والفساسف ، فارتقت بأنواره في معارج الهدى والايمان . ومدَّ القرآن الكريم سلطان اللسان العربي الى أطراف العالم القديم .

لقد ابتعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم من قبيلة قريش من خيار العرب داراً، وكانت قريش قد دأبت على اختيار أفصح ألفاظ العرب وأفضل استعمالاتهم، حتى غدت لهجتها المنتقاة أفصح لهجة عربية . ولما شئت إرادة الله أن يكون قوم الرسول أول المخاطبين بالرسالة الالهية (وأنذر عشيرتك الأقربين) (١) قضت

حكيمته البالغة تبارك وتعالى أن يتزل القرآن عربياً فصيحاً . قال الله تعالى :

(الر . تلك آيات الكتاب المبين : إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (١) .
(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون) (٢) .

(حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون .
بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) (٣) .

إن تنزيل القرآن عربياً فصيحاً أمر ضروري ، إذ لا يجوز في حكيمته تعالى أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بكلام يفهمه المخاطب ، ولا يرسل رسالة إلا بلسان يفهمه المرسل إليهم ، وإلا انعدمت جدوى الرسالة ، وكانت حال القوم المخاطبين قبل الخطاب الالهي وبعده سواء . وتنزه الله أحكم الحاكمين أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة . وإنما ذلك شأننا نحن المخلوقين الذين لا تخلو أفعالنا من النقص والعبث ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقد جلّى الله تباركت أسماؤه في محكم تنزيله سنته الحكيمة في إرسال رسله فقال : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبين لهم) (٤) فان الفائدة من الكتاب الالهي لا تتحقق إلا أن يبين للمرسل إليهم شرع الله وصراطه المستقيم (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٥) .

وعلى هذه السنة الإلهية الحكيمة أنزل الله القرآن العظيم بلسان سيد المرسلين

-
- ١ - سورة يوسف : ١ - ٢
 - ٢ - سورة الزمر : ٢٧ - ٢٨
 - ٣ - سورة فصلت : ١ - ٣
 - ٤ - سورة إبراهيم : ٤
 - ٥ - سورة النحل : ٦٤

محمد صلى الله عليه وسلم فخطبه جل ثناؤه بقوله: (فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) (١) .

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: (فقد تبين إذًا — بما عليه دللنا من الدلالة — أن كل رسول لله جل ثناؤه أرسله إلى قوم ، فانما أرسله بلسان مَنْ أرسله إليه ، وكل كتاب أنزله على نبي ورسالة أرسلها إلى أمة ، فانما أنزله بلسان مَنْ أنزله أو أرسله إليه . فاتضح بما قلنا ووصفنا ، أن كتاب الله الذي أنزله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بلسان محمد صلى الله عليه وسلم . وإذْ كان لسان محمد صلى الله عليه وسلم عريباً تبين أن القرآن عربي ، وبذلك أيضاً نطق محكم تنزيل ربنا ، فقال جل ذكره : « إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون » ، وقال : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » . وإذْ كانت واضحة صحة ما قلنا — بما عليه استشهدنا من الشواهد ودللنا عليه من الدلائل — فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لمعاني كلام العرب موافقة ، وظاهره لظاهر كلامها ملائمة ، وإنْ باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان . بما تقدم وصفناه (٢) .

ليس في القرآن ألفاظ غير عربية :

لقد ثبت لديك بالدليل القاطع أن اللغة العربية بحروفها وألفاظها وتراكيبها هي مادة القرآن المجيد ، لكنْ اشتغال القرآن على كلمات موجودة في غير لغة العرب قد أثار خلافاً بين العلماء ! هل في القرآن لغة أخرى غير العربية أم أنه برئ من ذلك ؟

١ - سورة الدخان : ٥٨

٢ - الآيات من سورة يوسف ٢ وسورة الشعراء ١٩٢ - ١٩٥

فقد روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا عن كلمات كثيرة في القرآن : إنها بلغات العجم ، منها قوله : طه ، اليم ، الطور ، الربانيون ، الصراط ، واختار الزمخشري أن التوراة والإنجيل أعجميان . ورجح ذلك بقراءة « الأنجيل » بالفتح .

وذهب الاكثرون منهم : الامام الشافعي ، وأبو عبيدة ، والطبري ، والقاضي الباقلاني ، وابن فارس : إلى أنه لم يقع في القرآن شيء من الأعجمي .

قال الامام الشافعي رحمة الله عليه : (ومن جِماع علم كتاب الله : العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب . . فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا ، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه ، لكان الامساك أولى به وأقرب من السلامة له ، إن شاء الله . فقال منهم قائل : ان في القرآن عربياً وأعجمياً . — والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب — ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليداً له ، وتركاً للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه . وبالتقليد أغفل من أغفل منهم ، والله يغفر لنا ولهم) .

واستنكر أبو عبيدة معمر بن المثنى دعوى وجود غير العربية في القرآن فقال : (إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين . فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول) .

التحقيق في المسألة :

ونحن نقطع بصحة ما صرح به جمهور العلماء المحققين . فان القرآن المجيد لا يخرج في جملته وتفصيله عن اللغة العربية . ونرى أن الخلاف بين العلماء إنما نشأ من وجود ألفاظ فيه اشتهرت في اللغات الأعجمية كما اشتهرت في العربية . فمن قال بوجود ألفاظ أعجمية في القرآن فقد أزجى قوله نظراً لذلك . ولكننا لم

نقف على كلام لأحد من الصحابة أو أجلاء التابعين يصرح فيه بوجود لفظ في القرآن دخيل على العربية ، وما لها به سابق عهد . ونحن نقطع — استناداً إلى الأدلة الآنف ذكرها — بأنه لا يوجد في القرآن أي لفظ أعجمي دخيل على العربية ناب عن خصائصها وأوزانها . وإنما إذْ ننفي ذلك نعزو الاشتراك في بعض الألفاظ بين العربية وغيرها من اللغات الى ثلاثة أمور :

— الاشتقاق من أصل لغوي واحد قديم .

— الاتفاق العفوي بين اللغات في وضع اللفظ .

— تعريب بعض الكلام الأعجمي .

١ — الاشتقاق من أصل لغوي واحد قديم :

ليست اللغة العربية إلا واحدة من اللغات السامية . والساميون مجموعة من الشعوب عاشت في الشرق الأوسط حياة مشتركة وتكلمت بلهجات متقاربة ، لم تلبث أن تطورت الى لغات متشابهة ، أطلق عليها اسم : اللغات السامية . فليس هناك أمة سامية ، إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها من أصل لغوي واحد . واللغات السامية هي :

١ — اللغة الأكديّة « البابلية والآشورية »

٢ — اللغة الأجلوتية « لغة نقوش رأس شمرا » .

٣ — اللغة الكنعانية « الفينيقية والعبرية والمؤابية » .

٤ — اللغة الآرامية السريانية .

٥ — اللغة العربية الشمالية الفصحى .

٦ — اللغة العربية الجنوبية « لغة بلاد اليمن وما والاها » .

٧ — اللغة الحبشية .

وإذا كان ذلك كذلك، فإن الألفاظ المشتركة بين العربية وغيرها من اللغات

السامية ليست ترجع الى التعريب فقط ، بل غالبها يرجع الى الأصل السامي ، فلا تنسب الى الحبشية مثلاً — لأن دعوى التعريب لا تصح إلا بأدلة قوية تفيد الاشتقاق المباشر ، و خروج الكلمة عن خصائصها العربية — بل تنسب الى السامية القديمة المتداولة بين الساميين أيام اتصالاتهم وتشابه ظروفهم وتقارب ألسنتهم قبل أن تفرق وتتميز بسماتها وخصائصها .

٢ — الاتفاق العفوى في وضع اللفظ في أكثر من لغة :

إن اللفظ المتشابه بين اللغة العربية ولغة أخرى إذا لم يقم الدليل على تعريبه أو انحداره من أصل لغوي واحد قديم ، فانه يكون ناجماً عن الظروف المتشابهة والتطور التاريخي المتماثل في كلتا الأمتين، مما يؤدي إلى وضعه في كل منهما دون سابق سماع له من أهل اللغة الأخرى ، فيكون أصيلاً في كل منهما . ولا مانع من نسبته إلى إحداهما أو كليهما . وقد اعتمد الطبرى على هذا الوجه في نفي العجمة عن القرآن ، كما فسر به الأخبار المروية عن ابن عباس وغيره ، ممن نُسب إليه القول بوجود العجمة في القرآن . فقد روى ابن جرير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما : (إن ناشئة الليل) (١) قال : بلسان الحبشية ، إذا قام الرجل من الليل قالوا : نشأ .

فذكر الطبرى أن هذه الأخبار وأمثالها لا تدل على أن الكلمات المزعوم عجمتها لم تكن كلاماً للعرب قبل نزول الفرقان ، فإن نطق الأعاجم بها لا يدل على أن العرب قد اقتبسوها منهم . ولكن غاية ما يدل عليه ذلك أنها من الكلام الذى تتفق فيه ألفاظ بعض الأمم ، دون أن تكون احداها مقتبسة من الأخرى .

مثاله : اتفاق الفارسية والعربية في كلمات منها : الدرهم والدينار ، والدواة والقلم ، والقرطاس . . الخ .

وكل لفظ اتفق على استعماله بين أمتين يستحق ان لا يُنسب إلى إحداهما بل

إلى كليهما ، فيسمى : عربياً أعجمياً ، أو حبشياً عربياً ، إذا كانت الأمتان تستعملانه .

ويرى الطبري أن هذا هو معنى الأخبار المروية عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وعن غيره . قال الطبري : (وذلك هو معنى من روينا عنه القول في الأحرف التي مضت في صدر هذا الباب ، من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشية ، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الفرس ، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم ، لأن من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبته إليه ، لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبته إليه — أن يكون عربياً . ولا من قال منهم هو عربي ، نفى ذلك أن يكون مستحقاً النسبة إلى من هو من كلامه ، من سائر أجناس الأمم غيرها . وإنما يكون الاثبات دليلاً على النفي ، فيما لا يجوز اجتماعه من المعاني ، كقول القائل : فلان قائم ، فيكون بذلك قوله دالاً على أنه غير قاعد ، ونحو ذلك مما يمتنع اجتماعه لتنافيها) .

وقال الطبري (فناسب ما نسب من ذلك إلى إحدى الأمتين أو كليهما بحق غير مبطل) .

٣ — تعريب بعض الكلام الأعجمي :

لم يكن العرب في عزلة عن العالم بل كانت لهم رحلات تجارية واتصالات بالأمم والشعوب المجاورة . ونتج عن تعاملهم معهم أنهم اقتبسوا من لغاتهم ما احتاجوا إليه أو استحسّنوه ، فاستعملوه حسب سليقتهم اللغوية فصار بذلك عربياً . والذي شأنه كذلك من الألفاظ إنما يسمى : مُعَرَّباً . وها نحن أولاء نجمل الحديث عنه ، فالمُعَرَّبُ من الألفاظ : ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها .

وإنك لتجد اللسان العربي كشأن الإنسان العربي في الصحراء تحرراً واستقلالاً وإباءً . لقد أبي اللسان العربي التبعية والخضوع لما يفد عليه من اللغات الأخرى ، حتى إن قبائل العرب لم تكن تحافظ في اقتباسها على هيئة النطق الأعجمية ، إنما كانت

نحوها ونجى عليها الابدال أو الزيادة والنقصان ، حتى تكسوها طابع اللغة العربية . فاللسان العربي بيان مستقل متميز يتحكم فيما يرد إليه من لفظ ، ويصوغه بذوقه الرفيع على منهاجه الخاص ، حتى يراه منسجماً مع نسقه البياني الفذ البديع .

قال أبو منصور الجواليقي في « المعرّب » : (اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الاسماء الأعجمية ، إذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم الى أقربها مخرجاً . وربما أبدلوا ما يعُد مخرجه أيضاً والابدال لازم لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم . وربما غيروا البناء من الكلام الفارسي الى أبنية العرب) .

قال الجوهري في الصحاح : (تعريب الاسم الأعجمي أن تنفوه به العرب على منهاجها . تقول : عربته العرب وأعربته أيضاً) .

ونحن أيضاً ننفي أن يقصد ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة وغيرهما من الصحابة والتابعين وعلماء السلف — المنسوب إليهم القول بوجود كلمات أعجمية في القرآن — ننفي أن يقصدوا بكلامهم ورود أعجمي محتفظ بطابع عجمته في القرآن . وننزههم عن مثل هذه الجهالة الجهلاء . فهم على تضلعهم في الدين واللغة لا يمكن أن يتسرب اليهم مثل هذا الوهم . وليس على طالب العلم من حرج في أن يدع التشبث بظاهر ما قالوا ، بل عليه أن يسبر غور كلامهم ليفهم حقيقة مقصدهم ، ليكون فهمه متناسباً مع ما هم عليه من الفضل ورجاحة الرأي والعلم بالعربية والقرآن . ويعد الذي أسلفنا من بيان فإننا نؤكد عدم تنافي مقاصد الفريقين ، ونحكم بان الخلاف بينهما إنما هو خلاف لفظي بحت .

من بلاغة القرآن استعماله هذه الألفاظ :

إن القرآن العظيم نزل بلسان العرب وأساليبهم من أجل تحقيق مقاصده فيهم أولاً . فذكر كل ما درجوا على استعماله مما له رتبة عليا في الفصاحة والبلاغة .

ومن ذلك الألفاظ التي قيل إن مع درها الأصيل من لغة أخرى ، لأنها انبثت في كلام العرب وتسنمت مكانة مرموقة في فن التعبير العربي ، لذلك يحسن من الفصحح أن يذكرها في مواطنها .

ولما كان القرآن أبلغ أسلوب عربي، وقد أنزله الله متحدثاً به العرب مثبته عجزهم عن مثله ، لذلك اشتمل على كلمات لها أصل أعجمي منها كلمة « استبرق » . قال الامام الجويني : (لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا . .

(فإن أراد الفصحح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه ، لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة . ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه ، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم . وإنما عربوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلّة وجوده عندهم ، وندرة تلفظهم به . وأما إن ذكره بلفظين فأكثر فانه يكون قد أحلّ بالبلاغة ، لأن ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ ، تطويل . فعلم بهذا ان لفظ « استبرق » يجب على كل فصحح أن يتكلم به في موضعه ، ولا يجد ما يقوم مقامه . وأي فصاحة أبلغ من أن لا يوجد غيره مثله ! ؟) اهـ .

تنزيل القرآن عربياً وعالمية الرسالة :

أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الإنسانية جمعاء ، لينقذها من ظلمات الضلال الى نور الإيمان ، قال تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (١) . إن رسالة محمد صلى الله عليه

وسلم ليست خاصة بالعرب ، ولكن الله تعالى كلّف بها البشرية عامة في كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد يقال : أليس قصوراً بالقرآن أن جاء بلسان العرب وحدهم طالما خوطبت به البشرية جمعاء ؟

نجيب عن ذلك : إن الله تعالى اختار لشريعته الدعاة الأكفاء والمحامين الأقوياء . فتوجه إليهم بالخطاب أولاً ، ليعدهم لنشر دينه والدفاع عن شريعته بإيمان عميق (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) (١) فقد أراد الله لهذا القرآن أن يتمكن في قلوب العرب ويستقر في جزيرتهم ، لينطلقوا به بعد ذلك إلى أرجاء المعمورة ليحيوا به موات القلوب ، ويزيلوا الغشاوة عن العيون ، وذلك بأحد طريقين :

أولاً : تعليم أبناء الشعوب الداخلة في الاسلام اللغة العربية : وقد حصل ذلك إذ أقبلوا على تلقي العربية بشغف وحرص زائدين ، بل نبغ منهم أعلام في علومها حتى أصبحت كتبهم من أهم المراجع على مر العصور .

وبين الإمام الشافعي أن الدين الذي يعم أقواماً لا بد أن يحيل بعضها تابعاً بعضاً في اللغة ، لفهم أحكام الدين وتطبيقه ، وإذا كان كذلك فاللغة الواجب تعلمها هي لغة الرسول وقومه . وساق الإمام شواهد من القرآن تدل على أنه أنزل بلسان عربي مبين ، ثم بين أن الواجب على كل مسلم معرفة قسط من العربية يتمكن به من إقامة الشعائر الاسلامية وهذا هو الحد الأدنى الواجب تعلمه ، والزيادة عليه استزادة من الخير .

قال الإمام الشافعي رحمه الله : (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه

جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترضَ عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والشهد وغير ذلك .

(وما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان مَنْ ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه : كان خيراً . كما عليه بتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر باتيانه ، ويتوجه لما وُجّه له ، ويكون تَبَعاً فيما افترض عليه وندب إليه) .

ثانياً : ترجمة المعاني القرآنية والأحاديث النبوية إلى اللغات الأخرى : حتى تنضح لأصحابها المبادئ الإسلامية وجميع الأوامر والنواهي الواردة ، فيتيسر لهم فهم القرآن بعقائده وقصصه ، والعملُ بتكاليفه . ولقد قضت الحكمة الالهية بتوجيه القرآن بلسان عربي مبين الى الأمة العربية ، لتقوم بنشره وتعليمه بالأسباب التى تسهل لها مهمتها . ومن هنا صار جميع العالم مأموراً به ، فقد أنزله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً .

إن كل امرئ مهما كانت أحواله من تعصب للغته أو جهل بالكتابة ، بإمكانه أن يقوم بتعاليم الاسلام، إذ لا يُحججه ذلك إلا إلى تعلم قدر وجيز من العربية بالاضافة إلى لغته . وهذا الحد الأدنى الواجب على الأعجمي تعلمه كفيل بتمكينه من أداء فروض الاسلام ، وأما ما وراءه من الأحكام والواجبات فالترجمة تضمن للمسلم معرفة ما يأتي وما يدع .

يتوفر بذلك لعامة المسلمين — على اختلاف ألسنتهم — قدر مناسب من العربية كافٍ لتجاوبهم جميعاً وانسجامهم وائتلاف أرواحهم . وهذا عنصر هام من عناصر تكوين الأمة : وقد دللنا انتشار القرآن العظيم عبر القرون في أرجاء العالم القديم بقاراته الثلاث إلى أن عروبة أسلوبه لم تقف حائلاً دون ذبوعه في مختلف الشعوب ، بل كانت وسيلة لانتشار اللغة العربية بين الشعوب المسلمة وتكوينها تكويناً متناسقاً ، انبثقت عنه الأمة الإسلامية المجيدة .